



Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux
Observatoire Social Tunisien

CAHIERS DU
FTDES N°6

Forêts tunisiennes

Entre marginalité territoriale et valorisation
des ressources naturelles.

Regards croisés entre gestionnaires et usagers

Coordination : Brahim Jaziri

Février 2022



إستراتيجيات الحد من اعتماد تربية الماشية على المكملات العلفية بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى

الهادي عبد الله³¹

الملخص

عرف سكان التخوم الشمالية للسباسب السفلى التونسية على مدار تاريخهم بنمط حياة البداوة التي تنبني أساسا على الحل والترحال. يفسر ذلك بعدم إنتظام الأمطار وقلة الموارد العلفية بالوسط التونسي. مثل هذا النمط عائقا أمام إستقرار السلطة المركزية للبايات والإدارة الفرنسية. لذلك سعى بايات تونس في مرحلة أولى ثم السلطة الإستعمارية في مرحلة ثانية إلى التضييق على تحركية القطعان وإنتجاع البدو بين المنطقة التلية والمنطقة السباسبية، وإجبارهم على الإستيطان وذلك لتسهيل عملية مراقبتهم وضمان إستقرار الحكم. كان لتحول البدو من نمط البداوة إلى الإستقرار عميق الأثر في تآكل المراعي وتدهورها نتيجة للضغط الرعوي المتزايد.

تهدف هذه الدراسة إلى تحسيس مربّي الماشية بالمناطق السباسبية التونسية بضرورة الضغط على تكلفة إنتاج الماشية وذلك بالحد من إعتدال النشاط الرعوي على المكملات العلفية والتنقلات في إطار ظاهرة "التّغريب". والتشجيع على تحسين المراعي بشجيرات ونباتات علفية محلية ومستوردة.

كلمات دليلية: تربية الماشية، الضغط الرعوي، الأعلاف، تحسين المراعي، السباسب السفلى، ضيعة صوّاف.

³¹أستاذ باحث، جامعة منوبة.

Abstract

Throughout history, the inhabitants of the northern borders of the Tunisian lower steppes; have known a nomadic way of life. This is explained by two factors: irregular rain and lack of fodder in central Tunisia. This pattern represented an obstacle to French authorities and beylical administration that had trouble setting down. Therefore, the beys first and the colonial powers second sought not only to restrict the movement of herds and the Bedouins, but also to force the latter to settle. This helped in monitoring them and ensuring stability of governance. The transition from the nomadic life to a sedentary one had a profound impact on grassland erosion as a result of increased pastoral pressure.

The aim of this study is to raise awareness among livestock farmers in the Tunisian regions of the need to reduce the cost of livestock production by reducing the dependence of pastoral activity on fodder supplements and movements in the context of the grassing phenomenon and encourage pasture improvement with local and imported fodder plants and shrubs.

Keywords: livestock, pastoral pressure, fodder, pasture improvement - lowlands, Sawaf estate.

مقدمة

شهدت التخوم الشمالية للسباسب السفلى بالبلاد التونسية، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة، كان لها بالغ الأثر في الحد من تنقلات قطعان الماشية في إطار ما يعرف بـ "العشابة" بين جهتي التل والسباسب وإطراد ظاهرة استقرار الرعاة وتحولهم شيئاً فشيئاً إلى مزارعين³². أدت هذه التحولات إلى تزايد مساحات غراسات الزيتون والزراعات المروية على حساب المساحات المخصصة للمراعي. لكن هذا التراجع لم يصحبه تقلصاً في حجم قطعان الماشية بل على العكس من ذلك فقد تضاعف قطعان الاغنام ثلاث مرات بين 1960

³² Habib Attia, Les Hautes Steppes tunisiennes : de la société pastorale à la société paysanne. Thèse Doctorat d'État, Univ. de Paris VII, 1977, 722 p.

و2000.³³ أدى اختلال التوازن بين مساحات المراعي وحجم قطعان الماشية إلى شح الموارد العلفية من جهة، واستعمال المكملات العلفية المروجة في الأسواق المحلية من جهة أخرى. وهو ما جعل تربية الماشية بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى تكاد تكون مستحيلة بدون التحركية المجالية في إطار "العشابة". وهو ما يثقل كاهل مربى الماشية ويرفع من تكلفة إنتاج اللحوم. تمثل الأنظمة الرعوية السائدة اليوم بالوسط التونسي نتاجا لعدد التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر. لدراسة وفهم هذه التحولات وانعكاساتها المجالية والإيكولوجية، اعتمدنا مصادر متنوعة لجمع البيانات والمعارف مثل الدراسات المونوغرافية والتاريخية والجغرافية والسوسيولوجية إضافة إلى وثائق الأرشيف المتعلقة بدفاتر المجى والنوازل المبوبة حسب المشايخ التي ستمكننا من شرح خاصيات مختلف مراحل تطور الأنظمة الرعوية بالوسط التونسي. مثل المجال المدروس موضوعا لعدد الاستثمارات السابقة التي أنجزت في إطار ورقات بحثية سابقة للكاتب³⁴، وهو ما مكننا من فهم علاقة الإنسان بالمجال في المنطقة المدروسة وملامح تطورها على المدى القريب والمتوسط. وفي هذا الإطار أجرينا سلسلة من المحادثات مع مجموعة من قدماء "الهطاية" و"العزابة" حول التحول من نمط الترحال إلى نمط الاستقرار وكيف انعكس ذلك اقتصاديا واجتماعيا على حياتهم وعلى علاقتهم بالمجال وبالموارد الطبيعية.

تهدف هذه الدراسة إلى تحسيس مربى الماشية بالمنطقة المدروسة بضرورة الضغط على تكلفة الإنتاج وذلك بالحد من اعتماد النشاط الرعوي على المكملات العلفية. يخلص البحث إلى اختلال التوازن بين ندرة الموارد العلفية وارتفاع حاجيات قطعان

³³ Mohamed Elloumi, et autres, *Mutations des systèmes d'élevage des ovins et perspectives de leur durabilité*. Options Mediter. 97, 2011, pp. 11-21.

³⁴ Hédi Abdallah Houa Souilmi, *Analyse des changements d'occupation du sol et des transformations socio-économiques au cours du XXème siècle dans les marges arides du Tell oriental (Dorsale centrale, environs d'Es-Srassif, Tunisie)*, Physio.Géo, Volume 9, 2015, pp.81-109. Hédi Abdallah, *Dynamique de la végétation et transformation des systèmes d'élevage sur les marges arides du Tell oriental de Soughas à Souar (Dorsale Tunisienne)*, Thèse, Univ.de Tunis/Université de Toulouse I, 2015, 373 p

Hédi Abdallah, *Mutations socioéconomiques et évolution des conditions de vie paysannes dans la Dorsale centrale (Tunisie)*. Geo-Eco-Trop 44 (2), 2020, pp.337-353.

الماشية بالوسط التونسي. ونتج عن ذلك تآكل المراعي وتراجع ثرائها البيولوجي وتفاقم اعتماد مربّي الماشية على الأعلاف المشتراة. وينجر عن ذلك ارتفاع تكلفة إنتاج اللحوم وتراجع المقدرة الشرائية للمستهلك. ولترشيد مربّي الماشية بالوسط التونسي نقدم دراسة لمثال الضيعة الواقعة في صواف التي انتهجت إستراتيجية تطوير مواردها الذاتية لإنتاج الأعلاف المحلية.

1. تربية الماشية الرعوية: من نمط الترحال إلى الاعتماد

على المكملات العلفية

1. مرحلة الإنتاج

نعني بمفهوم الانتجاع، ترحال السكان من منطقة إلى منطقة أخرى، وهي ظاهرة تم توارثها منذ قديم الزمن من أناس كانوا يرتحلون من وسط بيئي يصعب فيه العيش إلى آخر أكثر ملائمة. تواصلت هذه المرحلة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وتميزت بالترحال المتواصل للعشائر ولقطعان الماشية بحثا عن المرعى وللتزود بالحبوب وزيت الزيتون. وتختلف أهمية هذه الظاهرة من سنة إلى أخرى حسب حدة الجفاف. ويمكن التمييز بين أنواع عدة من الإنتاج:

1.1. العزّابة

تطلق عبارة "عزّب" في الدارجة التونسية على من أقام خارج دياره لبرهة من الزمن ومنه اشتقت تسميات "العزيب" (35) و"العزّابة" (36) و"التعزيب" (37). وتعتبر هذه الشريحة من البدو ميسورة الحال مقارنة بباقي مكونات العشائر وذلك لإمتلاكها قطعان كبيرة من الماشية يتجاوز متوسط حجمها مائتي رأس، متكونة أساسا من الضأن. ويتنقل هذا الصنف من "العزّابة" بين المنطقة التليّة والسباسب السفلى بحثا عن المرعى وفق رزنامة شبه منتظمة لا تتأثر كثيرا بالمعطيات المناخية. ويفسّر هذا الإنتظام بعدم قدرة المراعي السباسبية على توفير موارد علفية كافية

³⁵-القطيع خلال تنقله وإقامته خارج المرعى الأصلي.

³⁶-الرعاة خلال تنقلهم وإقامتهم خارج الديار.

³⁷-الرعي خارج المرعى المعتاد (Transhumance)

لهذه القطعان حتى في السنوات الممطرة من جهة وبرغبة مالكي الضيعات في المنطقة التالية في إستقدام هذه القطعان للإستفادة من عائدات "العشابة" وتوفير سماء طبيعي لأراضيهم من جهة أخرى. وقد مثل هذا التكامل بين كبار ملاكي الأراضي بالمنطقة التالية و"عزابة" التخوم الشمالية للسباسب السفلى، أرضية مناسبة لنسج علاقات وطيدة بين الطرفين (شراكة، صداقة، مصاهرة...).

ويتكون الصنف الثاني من "العزابة" من مالكي القطعان متوسطة الحجم (من 50 إلى 200 رأس) ويتميز برزنامة تنقلات أقل إنتظام من الصنف الأول، إذ لا تنتقل هذه القطعان إلى المنطقة التالية إلا في السنوات التي يشتد فيها الجفاف ويقل فيها المرعى. بينما تلازم مجالها الرعوي خلال السنوات ذات المحاصيل الجيدة أو المتوسطية.

على المستوى الإيكولوجي، تمكن ظاهرة التّعزيب من إستغلال المراعي بطريقة دورية تصون الموارد النباتية من خطر الإستنزاف ولا تعرقل نمو الأصناف النباتية الموسمية والدائمة. وهو ما يحمي المراعي السباسبية من مخاطر الرعى الجائر. وهذا ما يجعل النظام الرعوي القائم على "التّعزيب" نظاما مناسباً لتوازن هذه البيئات الهشة.

على المستوى الإقتصادي، تبين المصادر إعتداد سكان التخوم الشمالية للسباسب السفلى إلى حدود الحرب العالمية الثانية على الإقتصاد الرعوي الذي يركز بالأساس على التنقل والبحث عن المرعى. ويفسر ذلك بتكثف قطعان الماشية مع ظاهرة الجفاف من خلال التنقل بين المجالات بحثا عن المراعي، عكس المحاصيل الزراعية التي تتأثر كثيرا بتذبذبية النظام المطري.



صورة 1: صورة توثق تواجد العزاية ببنزرت (أقصى شمال تونس)

المصدر: Poncet, J. (1962)

2.1. الهطّاية

تستعمل بعض المراجع الفرنسية عبارة (transhumance) كمترادف فرنسي لعبارة "هطّاية" وهي ترجمة غير دقيقة، لأن ما يعبر عنه بالفرنسية "transhumance" يعني إنتقال قطعان الماشية من مكان إلى آخر بحثاً عن المراعي الخصبة. وتقابل هذا التوصيف في الدارجة التونسية عبارة "التّغريب" أو "العشابة" والتي تهم في غالب الأحيان الفئات البدوية الميسورة الحال. في حين أن نتائج المحادثات مع قدماء "الهطّاية" تبين أن هذا الصنف من التحركات المجالية هي عملية إنتاج كلي أو جزئي للعشائر الفقيرة التي لا يتجاوز حجم قطعانها في أفضل الحالات حازر 50 رأس من الماشية وينزل هذا العدد في أغلب الأحيان إلى أقل من 10 رؤوس.

ويسعى "الهطّاية" من خلال إنتجاعهم إلى "فريقيا" إلى تعويض ما يسببه الجفاف من نقص في محاصيل الحبوب (القمح والشعير) بسهول الجببينة وسيسب والقيروان حيث تنتقل هذه العشائر للمشاركة في مواسم الحصاد بالمجال التلي أو جني الزيتون بالساحل أو العنب بالوطن القبلي. وأحياناً يكتفي الهطّاية بما

تخلفه الآلة الحاصدة من السنابل أو جمع ما بقي عالقا من الزيتون بعد الجمع³⁸. وهو ما خلده البدو في تراثهم الغنائي⁽³⁹⁾ وأمثالهم الشعبية.⁽⁴⁰⁾



صورة 2: صورة توثق لتردي الوضعية الاجتماعية للهطاية بفريقيا.

المصدر: Poncet, J. (1962).

وعلى عكس "العزابة" الذين تربطهم علاقات جيدة بكبار ملاكي الأراضي بالمنطقة التلية، فإن الهطاية يمثلون بالنسبة للفلاح "الفريقي" مصدر هرج وفوضى لذلك عادة ما يقع إجلأؤهم خارج حدود الضيعات الفلاحية. ويمكن التفريق بين صنفين من الهطاية:

1.2.1 الصيافة

تطلق تسمية "الصيافة" على الهطاية عند إنتقالهم صيفا إلى "فريقيا" للمشاركة في موسم الحصاد. وقد عمق إنتشار إستعمال الآلة الحاصدة بالمناطق التلية هشاشة

³⁸ الطياش.

³⁹ - العام الخايب فرق الأحباب من حومتنا *** لو كان جات فينا قلوب رانا متنا

- خالي حني لا ترحل لا تعزب بينا *** حشيش بلادنا يزينا

⁸ الجذب فراق الهوش

هذه الفئات الإجتماعية التي فقدت مكانتها كقوة عاملة ومحددة لنجاح موسم الحصاد وأصبح يقتصر دورها على جمع ما تخلفه الآلة الحاصدة من السنابل.

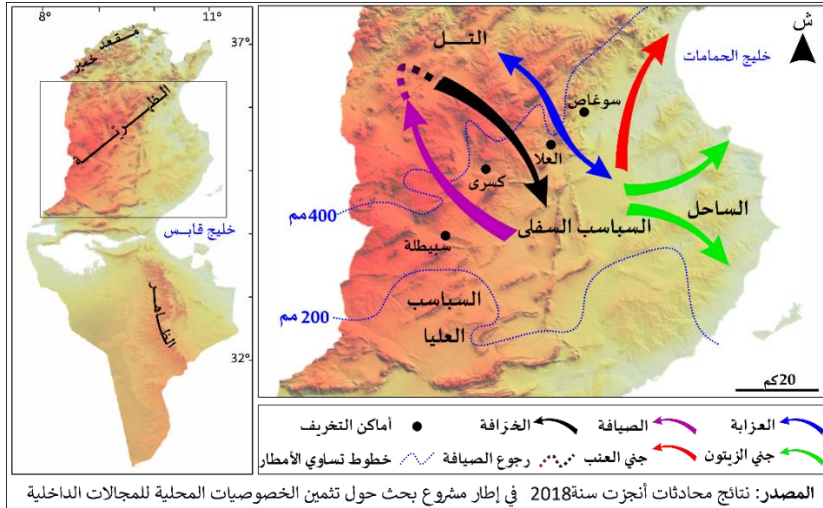
2.2.1 الخرافة

بعد نهاية موسم الحصاد يشد "الهطاية" الرحال للعودة إلى الديار. وتتزامن هذه العودة مع موسم جني ثمار التين الشوكي الذي يغطي مساحات هامة من ربي الأحجار الرملية الموازية للسفوح الشرقية للظهيرية التونسية والمحاذية لسهول الجببينة وسيبس والقيروان. وتقضي هذه العشائر المدة الفاصلة بين نهاية موسم الحصاد وبداية عواصف الخريف، لذلك يطلق عليهم سكان المناطق المجاورة تسمية "الخرافة". وتلعب ثمار التين الشوكي دورا هاما في النظام الغذائي "للخرافة"، إذ يمكنهم من تخزين جزء هام من مؤنهم لفصل الشتاء ويوفر لماشيتهم المرعى. وقد إختارت بعض عائلات "الخرافة" منذ أواخر القرن التاسع عشر الاستقرار وسط غابات التين الشوكي التي تغطي ربي الأحجار الرملية الممتدة من جبل بومرة إلى جبل بوسلام. وتطورت هذه النواتات لتصبح اليوم تجمعات سكانية مختلفة الأحجام تحمل نفس الألقاب المنتشرة جنوب القيروان مثل ما يبينه الجدول التالي:

جدول 1: مساهمة حركة الإنتاج في إعمار التخوم الشرقية للمنطقة التلية

الألقاب	مكان تواجدها في الوقت الحاضر	المجال الأصلي لهذه الألقاب
العارمة	دهقان	قفصة
الذوايبية	عين سيف	سيدي علي بن نصر الله
البريكات	جبل بومرة	سيدي علي بن نصر الله
هماد	عين بومرة	حاجب العيون
العوايد	هنشير البحيرات	السبيخة
الهمامة	سوغاص	سيدي بوزيد
المواغير	سوغاص	سيدي علي بن نصر الله

المصدر: استبيانات اقتصادية واجتماعية للمؤلف (2003, 2007, 2010, 2015, 2020)



شكل 1: تحركية البدو واتجاهات الإنتاج بين السباسب والتل إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين

II. تراجع الإنتاج وبداية توطين البدو بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى

1. السلطة المركزية وأولى محاولات توطين البدو بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى

نتيجة لتتالي سنوات الجفاف وتواتر المجاعات شهدت المنطقة التلية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشارا لعمليات الاغارة التي يشنها البدو على السكان المحليين. وقد تطورت هذه الظاهرة لتتال مصالح السلطة المركزية، حيث أعتبرت واقعة الهجوم على ناقلة نقود الباي أو ما أطلق عليه في الوثائق بـ "دراهم الدولة" سنة 1871 سابقة خطيرة في علاقة البدو بالسلطة. وهو ما دفع بالوزير الأكبر خير الدين إلى انتهاج سياسة صارمة وحازمة مع بعض عروش الهمامة، حيث قام بترحيل بعض فرق أولاد عبد الكريم والبدور وأولاد ثليجان إلى شمال الإيالة التونسية. ولئن تنوعت أوطان الرهن والتغريب فإنها قد حددت إنطلاقا من المصادر الارشيفية بالمجال الذي يغطي الجزء الجنوبي من "تراب رباح" والجزء الشمالي من سهل القيروان والجزء الغربي من "تراب أولاد سعيد"، وهو ما يتوافق مع التخوم الشمالية للسباسب السفلى. وبلغت حملة التغريب أوجها في سنة 1875 حيث تم

جلب من تخلف من أولاد عبد الكريم والبدور وغيرهم إلى الأماكن التي صدر الإذن بنزولهم بها فتم تنزيل الوذاينية والبدور بوطن أولاد سعيد وبقية أولاد عبد الكريم بوطن أولاد يحي وكافة أولاد ميرة بوطن رياح. وإضافة إلى تفريق أولاد عبد الكريم، عمد خير الدين إلى التضييق على الموهونين بوطن النفيسة وشل حركتهم فقرر بيع خيولهم وإجبارهم على تعاطي النشاط الزراعي ليربطهم بالأرض وتعويدهم على الاستقرار⁴¹.

2. دور الإدارة الإستعمارية في توطين البدو بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى

في إطار تطبيق سياسة الإستعمار الزراعي بجنوب الظهيرية التونسية واجهت الإدارة الإستعمارية عديد الصعوبات، لعل أبرزها مسألة تأمين المعمرين وممتلكاتهم من غارات قبائل البدو. وأمام إستحالة القدرة على مراقبة القبائل غير المستقرة، سعت الإدارة الإستعمارية بكل السبل إلى التضييق على تنقلات القطعان وإنتجاع العشائر⁴². كما شجعت السكان المحليين على التشجير وزراعة التين الشوكي لما في ذلك من مساهمة منها في تثبيت السكان حتى تسهل مراقبتهم وضمان أمن المعمرين⁴³. أدت هذه السياسة إلى ظهور نواتات سكانية مستقرة متاخمة للضيعات الإستعمارية، يستمد المعمرين منها القوى العاملة. تطورت هذه التجمعات السكانية لتصبح دواوير⁴⁴ متفاوتة الأحجام، تنحدر من نفس الأصول، ويمكن ملاحظتها اليوم حول ضيعات صواف والجبيبية وعين بومرة وهو ما تؤكد نتائج الإستبيان الذي أجريته بالمنطقة المدروسة. ورغم إستقرارها، حافظت هذه الدواوير على طابعها الذي يعتمد على الإقتصاد الرعوي بالأساس.

ساهم اطراد ظاهرة توطين البدو إلى تراجع تنقل العزابة بين المنطقة التلية والتخوم الشمالية للسباسب السفلى وأصبحت القطعان تعتمد بالأساس على

⁴¹ عبد المجيد الجواوي، المحلة والهمامة: الفكر الإصلاحي على محك ممارسة السلطة، دار سحر للمعرفة، 2018، ص. 319.

⁴² Jean Despois, *La Tunisie orientale : Sahel et basse steppe*. Publication de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis. Presses Universitaires de France, 1955, 554p.

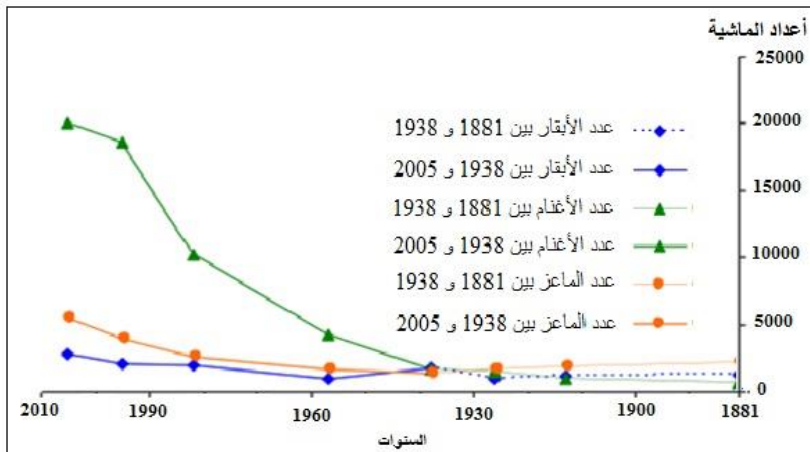
⁴³ Hédi Timoumi, *La colonisation française et la sédentarisation des semi-nomades des steppes tunisiennes (Cherahl) 1905-1925*. Cahiers de la Méditerranée, 6, 1, 1973, pp. 95-112.

⁴⁴ الدوار هو تجمع سكاني يقطن به عموما مجموعة من السكان تجمعهم روابط عائلية أو قبلية أو جغرافية

المراعي المحلية وعلى تنقل جزء من القطعان في سنوات الجفاف في إطار العشابة. رغم تراجعها المطرد ظلت ظاهرة "التّعزيب" في المنطقة المدروسة إلى حدود ثمانينات القرن الماضي تلعب دورا هاما في توفير المرعى لقطعان الماشية⁴⁵.

3. مرحلة نهاية التّعزيب وتوطين القطعان

لاحت منذ بداية ثمانينات القرن الماضي بوادر نهاية ظاهرة "التّعزيب" بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى فقد تقلص بشكل كبير عدد القطعان التي واصلت تنقلها الدوري إلى المنطقة التليّة. ويفسر ذلك بتحوّل ملكيّة القطعان الكبرى من العائلة الموسعة (الجد والإبن والأحفاد) إلى قطعان صغيرة الحجم (أقل من 100 رأس) على ملكية النواتات العائلية المصّغرة. ونتج عن تفتت القطعان الكبيرة تراجعها هاما لظاهرة الرعي الدوري المجمع، في المقابل تدعّمت ظاهرة الرعي المشتت الذي تتقارب فيه معدلات كثافة انتشار الماشية في المراعي على مدار السنة. ويعتبر هذا النوع من الرعي من العوامل المؤدية إلى إتلاف للمراعي لأنه لا يمكن التشكيلات النباتية العشبية والمخشوشة من فترة راحة لتتجدد.

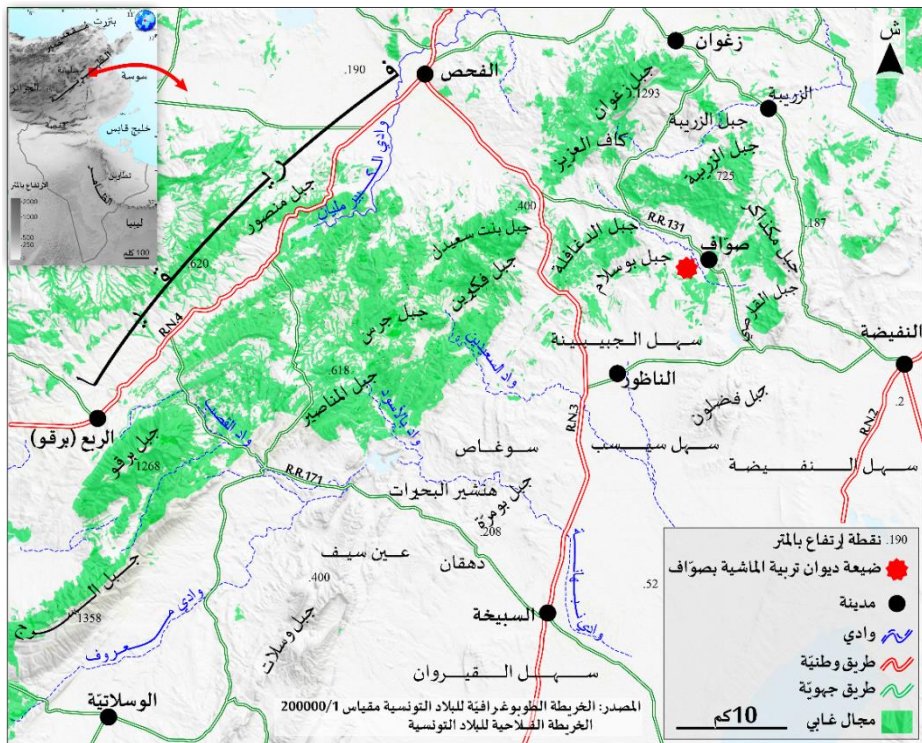


شكل 2: تطور أعداد الماشية بين 1881 و2010

المصدر: دفاتر المجبي (من 1881 إلى 1970) ودفاتر تلقيح الماشية (1970 إلى 2010).

⁴⁵ Amor Mokhtar Gammar & Mekki Ben Salem, *Dynamique spatiale et risques environnementaux, Analyse cartographique dans le secteur de Jougar (Dorsale tunisienne)*, Communication aux journées scientifiques organisées par l'Association des universités Francophones sur le thème « Télédétection et géorisques », Ottawa.

هذا الإنتقال من النظام الرعوي الذي يعتمد على "التعزيب" إلى نظام يعتمد بالأساس على توطين تربية الماشية، صاحبه تزايدا مطردا لأعداد الماشية بالمجال المدروس (شكل عدد2). وأصبح المرعى الطبيعي لا يستجيب لحاجيات القطعان المتزايدة، وهو ما تسبب في تنامي الضغط الرعوي على المراعي الطبيعية وسرّع في نسق تأكلها على مستوي الكثافة والتنوع البيولوجي. إذ تبين نتائج الإستبيان أن المرعى الطبيعي لا يغطي سوى 41% من حاجيات القطعان السنوية أي ما يعادل خمسة أشهر سنويا. وهو ما حتم على مربي المواشي الإلتجاء إلى تغطية إختلال الموازنة العلفية لقطعاتهم المقدرة ب 59% من الحاجيات الإجمالية عن طريق المكملات العلفية المروجة في الأسواق. وهو ما يرقّع في تكلفة تغذية الماشية ويثقل كاهل المربين ويقلص من هامش ربحهم. وانعكس ذلك سلبا على مستهلكي اللحوم الحمراء التي تضاعفت أسعارها بين 1980 و 2021 أكثر من عشرة مرات.



شكل 3: التخوم الشمالية للسياح السفلى و فريقيا.

وبالاستناد إلى ما سبق ذكره، تحتاج المراعي الطبيعية للتخوم الشمالية للسباسب السفلى إلى برامج تهيوية لتنمية الموارد العلفية وهو ما سيساهم في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمربي الماشية وحماية الغطاء النباتي من الإتلاف. في هذا الإطار تمثل تجربة ضيعة صواف، التابعة لديوان تربية الماشية وتوفير المرعى والواقعة داخل المجال المدروس، مثالا قابلا للتعميم نظرا لتشابه الظروف الطبيعية والبشرية.

III. إستراتيجية ضيعة ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى

بصواف لتنمية الموارد الرعوية

نظرا للنجاح النسبي الذي حققته ضيعة صواف، يمكن إعتبارها مثالا متكاملا للاستغلال الفلاحي والرعوي الأمثل وللتحسين الوراثي لسلالات الضأن المحلية والمستوردة بالوسط التونسي. كما تعد قاعدة لإختبار نتائج البحوث التنموية والمتعلقة بالموارد العلفية والإنتاج الحيواني. وتعتبر الضيعة أهم مركز بالبلاد التونسية لتربية فحول الأغنام المحسنة للسلالة البربرية والسلالة الغربية كما توفر عددا هاما من الإناث الصالحة للتربية من خلال قاعدة الانتقاء وذلك باعتماد مقاييس فنيّة وصحيّة مضبوطة. وفي إطار الإنفتاح على محيطها، تعتبر ضيعة صواف مركز إشعاع لتبليغ التقنيات الحديثة للمربين عبر تنظيم أيام إعلامية ودورات تكوينية لفائدتهم.

1. المعطيات الطبيعية لضيعة صواف

تقع ضيعة ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى بصواف بين سهل النفيضة والجزء الممتد بين جبل زغوان وجبل بنت سعيدان من الظهيرية التونسية. تتكون تضاريس هذه المنطقة من جبال وربي ذات أحجار رملية. يحدها من الغرب جبل الدغافلة (522م) وجبل القنة (543م) ومن الشمال جبل كاف النعامة (523م). كما يحدها من الشرق سهل النفيضة والجنوب سهل الجببينة. وتنتمي مراعي

ش

صوواف

ميدى البولوى

ضبعة صوواف

اللة قاطمة

السنطرة

سبى بو كنير

سبى عبد الله

جبل الدوايس

جبل القرش

جبل الربيعين

بوز التلمية

166. نقطة لارتفاع بالمتر

واد

طريق جوية

مجال حضري

166

219

214

1 كم

زيتان

مراعي محسنة

مراعي غير محسنة

مساحات الجفاف و السبخة

أراضي مهينة صالحة للزراعة

أراضي غير مهينة صالحة للزراعة

غابة عرعار بو هوة

غابة عرعار بو هوة محسنة بالأكاسيا

شكل 4: خريطة لتوزيع التشكيلات النباتية الطبيعية والمحسنة بضيعة صواف

⁴⁶Michel Gounot et Antoine Schoenenberger, Carte phyto-écologique de la Tunisie septentrionale : échelle 1/200.000. Feuille IV : Makter-Kairouan., 1967.

⁴⁷ Amor Mokhtar Gammar, *Carte de végétation de la Tunisie au 1/ 1000000*, 2002.

2. الإستراتيجية المعتمدة بضيعة صواف لتنمية الموارد الذاتية

من الأعلاف

يمكن احتساب الموازنة العلفية من تقييم مدى التوازن بين احتياجات القطيع والموارد العلفية (المنتجة محليا والمشتراة والمستغلة عن طريق العشابة):

1.2. تقدير حاجيات القطيع

تختص ضيعة صواف في تربية سلالات محلية وأخرى مستوردة من الأغنام والماعز. ويقدر عددها بـ 2195 رأس. وتتميز هذه السلالات بقدرتها على التأقلم مع ندرة الموارد العلفية بالتخوم الشمالية للسباسب السفلى وبجودة منتجاتها من اللحوم ذات القدرة التنافسية العالية. ويقود مختلف قطعان الأغنام والماعز، رعاة من ذوي الخبرة في إدارة قطعان الماشية وتسييرها، يعملون حسب عقود سنوية قابلة للتجديد. تعتمد تربية الأغنام بضيعة صواف على نظام بمقتضاه يتم تقسيم قطعان الماشية إلى خمسة قطعان متقاربة الأحجام (200 رأس)، أربعة قطعان من السلالة المحلية التي تعرف بإسم "النجدي"، وقطيع من سلالة "الغربي" بالإضافة إلى قطيع من الخرفان المعدة للبيع ومجموعة هامة من الفحول. ويبلغ الحجم الإجمالي لقطعان الأغنام بضيعة صواف 1740 رأس (جدول 2). بالإضافة إلى تربية الأغنام، تميزت ضيعة صواف في السنوات الأخيرة بتزايد حجم قطيع الماعز من سلالة "البوار" المهجن بالدمشقي، حيث يبلغ حجم القطيع حسب بيانات الضيعة المدروسة للسنة الماضية (2020) 455 رأس. ويفسر هذه التوجه بملائمة تربية الماعز للمساحات الغابية الهامة التي تغطي جزء كبير المراعي. كما يفسر أيضا هذا التوجه بسعي إدارة ضيعة صواف إلى محاولة تثمين موروث الخبرات التي توارثها رعاة منطقة صواف في مجال تربية قطعان الماعز وذلك لملائمة الأوساط الجبلية لهذا النشاط.



صورة 3، قطيع الماعز صورة 4، مثال لواحد من قطعان الأغنام (الصور للمؤلف)

جدول 2: ضبط حاجيات قطيع الأغنام والماعز بضبعة صواف

السلالة	العدد	الحاجيات العلفية السنوية بحساب الوحدة العلفية ⁴⁸ (و.ع)
5 قطعان نجدي	1050	383250
قطيع غربي	220	80300
خرفان معدة للبيع	420	153300
فحول	50	18250
المجموع (الأغنام)	1740 رأس	635100 و.ع
البوار المهجن بالدمشقي	455 رأس	166075 و.ع

المصدر: بيانات ضبعة صواف 2020

بالاعتماد على البيانات التي إستقيناها من ضبعة صواف والمتعلقة بالعدد الجملي لقطعان الماشية، تمكنا من تقدر الحاجيات السنوية من الأعلاف لقطعان الضأن من الأغنام والماعز بـ 801175 وحدة علفية تتغير هذه الحاجيات حسب السنوات بتغير تركيبة وحجم قطعان الماشية. كما بينت نتائج المحادثات التي أجريناها مع المشرفين على الضبعة ومع الرعاة استقرار البنية الجسمانية للقطعان خلال السنة وعدم تأثرها بتعاقب الفصول أو بسنين الجذب والوفرة. ويفسر ذلك بالتوجه الذي اعتمدته ضبعة صواف في العشریات الأخيرة والذي يركز بالأساس

⁴⁸الوحدة العلفية (و.ع.) هي الوحدة المستعملة لتحديد قيمة الطاقة من العلف والتي يقدروها الباحثون بالطاقة التي يوفرها 1 كغ من الشعير المحصود في مرحلة الحبوب الناضجة. وهي ما يعادل الطاقة التي يوفرها الغذاء الكافي لرأس من الضأن لمدة يوم واحد. يمكن احتساب حاجيات القطيع على النحو التالي: العدد الجملي لقطعان الأغنام والماعز 1 X وحدة علفية 365 يوم

على تنمية الموارد الذاتية لإنتاج الأعلاف وتحسين المراعي بنباتات رعوية ذات مردودية عالية وشديدة التأقلم مع المناطق الجافة والشبه الجافة.

2.2. الموارد العلفية لضيغة صواف

لتلبية حاجيات قطعان الماشية، إنتهجت ضيغة صواف إستراتيجية تعتمد على تحسين المراعي وتنوع مصادر الأعلاف المنتجة داخل الضيغة وذلك للحد من المشتريات العلفية التي تثقل كاهل الضيغة. وتعد مساحة الضيغة التي تقدر بـ 1523 هك من الأراضي الدولية التابعة لديوان تربية الماشية وتوفير المرعى أحد الدعائم الهامة لتنفيذ هذه الإستراتيجية. وتمثل المراعي حوالي 60% من المساحة الجمالية للضيغة ويمكن تصنيفها إلى نوعين:

1.2.2. المراعي الطبيعية

تعرف أراضي المراعي الطبيعية بأنها " الأراضي غير المستغلة في الزراعة والتي تغطيها النباتات الطبيعية المناسبة لرعي قطعان الماشية"⁴⁹. وتضم هذه المراعي المساحات الغابية والسباسبية التي تمتد على مساحة تساوي 217 هكتارا، أي ما يعادل 14.3% من مساحة الضيغة. وتكمن أهمية هذه المراعي في مساهمتها غير المكلفة في تغذية القطعان بالرغم من تدهورها، فهي تمثل مرعى لقطعان الضيغة في جزء هام من السنة. ورغم تدني إنتاجيتها العلفية المقدرة بحوالي 180 وحدة علفية /هك/سنة، حسب تقديرات Le Houérou (1969)، تعد المراعي الطبيعية دعامة هامة لتربية قطعان الماشية بضيغة صواف.

جدول 3: متوسط إنتاجية المراعي الطبيعية بضيغة صواف من الأعلاف بحساب وحدة علفية/هك/سنة

نوع المرعى	المساحة (هك)	وحدة علفية/هك/سنة	وحدة علفية
المراعي الطبيعية	217	190	41230

المصدر: تقديرات ضيغة صواف

⁴⁹ Marc Carriere, *Impact des systèmes d'élevage pastoraux sur l'environnement en Afrique et en Asie tropicale et subtropicale aride et sub-aride*. CIRAD, 1996, 75p.

2.2.2. المراعي المحسنة

تمتد على مساحة هامة تقدر ب 639 هكتار أي ما يعادل 42% من إجمالي مساحة الضيعة. وتلعب هذه المراعي دورا كبيرا في تنمية الموارد العلفية في المناطق الجافة وشبه الجافة. وقد تميزت ضيعة صواف في السنوات الأخيرة بالإضافة مواصلتها الإعتماد على "الأكاسيا" والتين الأملس و "القطف" بتوجيهها نحو تجارب غراسة "الحلاب" و "الجداري" و "الخروب" وهي شجيرات علفية محلية تنتهي إلى نفس الطابق البيومناخي الذي تنتهي له مراعي الضيعة. ويهدف المشرفون على الضيعة من خلال هذا التوجه إلى تجاوز عائق الجفاف وندرة هطول الأمطار وقلة انتظامها ولضمان سهولة تأقلم الشجيرات المحلية داخل مجالها الحيوي.



صورة 5. غراسة التين الشوكي الأملس صورة 6. غراسة شجيرات الحلاب
(الصور للمؤلف)

جدول 4: متوسط إنتاجية المراعي المحسنة بضيعة صواف من الأعلاف بحساب وحدة علفية/هك/سنة

نوع المرعى	المساحة (هك)	وحدة علفية/هك/سنة	وحدة علفية
الأكاسيا	395	900	355500
القطف	34	500	17000
النفلة	30	1100	33000
هندي أملس	180	900	162000
جداري	5	450	2250
حلاب	5	450	2250
الخروب	1	1000	1000
معدل الإنتاج السنوي لضيعة صواف من الأعلاف			573000

المصدر: تقديرات ضيعة صواف

2.2.2. الموازنة العلفية لضبيعة صواف

يمكن احتساب الموازنة العلفية لضبيعات تربية الماشية وذلك بتقدير المعدل الإجمالي مواردها العلفية السنوية ومقارنتها بالحاجيات السنوية لقطعانها. تمكن النتائج المدققة والمركزة على طرق علمية الموازنة العلفية من تقييم حاجيات قطعان الماشية التي يجب توفيرها على المدى القريب ومساحات المراعي التي يجب تحسينها للإستجابة لحاجيات القطيع. ومكنتنا البيانات المستقاة من ضبيعة صواف من احتساب موازنتها العلفية حيث تقدر حاجيات قطعان الماشية بهذه الضبيعة بـ 801175 وحدة علفية سنويا تمكن المراعي الطبيعية والمحسننة من توفير حوالي 77% من إجمالي هذه الحاجيات أي ما يعادل 614230 وحدة علفية أي بنسبة عجز تقدر بـ 23% من إجمالي حاجيات قطعان الأغنام والماعز بضبيعة ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى بصواف.

ولكي تحافظ قطعان الماشية على بنية جسمانية جيدة حتى في الفترات التي تتراجع فيها مردودية المراعي، تنتهج إدارة الضبيعة سياسة تخزين المكملات العلفية التي تقتنيها عن طريق شراء الأعلاف أو عن بواسطة التعاقد مع ضبيعات إنتاج الأعلاف المروية، وذلك لتغطية عجز الموازنة العلفية المقدر بحوالي ربع الحاجيات الجمالية لقطعان الماشية.

IV. توصيات

مقارنة بمعدل عجز الموازنة العلفية بالوسط التونسي والمقدر بحوالي 58 %، تعتبر ضبيعة صواف التي لا يتجاوز عجز موازنتها العلفية 23 %، مثالا ناجحا قابلا للتعميم بهدف تقليص تبعية مربّي الماشية إلى الموارد العلفية المروجة في الأسواق والتي تثقل كاهل هذه الفئات الاجتماعية وتسبب التآكل المتواصل للمراعي الطبيعية ذات التوازنات البيئية الهشة.

وللنسخ على منوال ضبيعة صواف يجب اعتماد مقاربة تشاركية تتكافل فيها جهود الدولة والمواطنين لتحسين مراعي. حيث تتكفل الدولة بـ:

- توفير المشاتل الأكثر قدرة على التأقلم مع مناخات وترب الوسط التونسي
- الاستعانة بمختصين في مجال تهيئة المراعي لتحديد المشاتل المناسبة لمختلف البيئات الرعوية وإرشاد المنتفعين.
- إسداء منح تحفيزية لتشجيع مربّي الماشية على الانخراط الطوعي في مشروع تحسين المراعي.

في المقابل يوكل للمنخرطين في هذه المقاربة من مربّي المواشي مهمة إنجاح هذه المشاريع وذلك بـ:

- تخصيص جزء من مراعيهم لتنفيذ هذه البرامج،
 - العناية بهذه المراعي المحسنة وحمايتها إلى أن تصل إلى طور الاستغلال،
 - ترشيد إستغلال المراعي المحسنة لضمان ديمومتها.
- سيمكن تحويل هذه المراعي من مراعي طبيعية شديدة التآكل إلى مراعي محسنة بأكثر المشاتل الرعوية استساغة وتأقلم مع مناخات وترب الوسط التونسي من:
- تهمين مساحات غير قابلة للإستغلال الزراعي،
 - حماية أديم الأرض من الإنجراف،
 - تنمية الموارد العلفية لفئات اجتماعية يعتمد دخلها بالأساس على الاقتصاد الرعوي
 - التقليل من تبعية نشاط تربية الماشية للموارد العلفية المشتراة

في المناطق التي لا تتوفر فيها مساحات رعوية قابلة للتحسين. وللضغط على نسبة عجز الموازنة العلفية يستحسن تطبيق نظام التحكم في حجم القطعان للتأقلم مع التغيرات البيفصلي والبيسنوي للموارد الرعوية. وذلك بالزيادة في حجم القطعان عن طريق الشراء في السنوات الممطرة وبيع جزء من القطيع في السنوات الجافة.

الخاتمة

اهتمت هذه الدراسة بالتحويلات التي شهدتها نظم تربية الماشية الرعوية بالوسط التونسي منذ نهاية القرن التاسع عشر، والمتمثلة في تحول النشاط الرعوي من الإنتاج الدائم للقطعان والعشائر إلى تأكد ظاهرة الاستقرار وبروز تجمعات سكانية مستقرة تنحدر من نفس الأصل. ونتج عن هذه التحويلات الإقتصادية و الإجتماعية تغيرات هامة في طرق استخدام الأرض، تمثلت في تراجع المساحات المخصصة للمراعي مقابل تطور المساحات المروية والمساحات المخصصة لغراسة الزياتين والأشجار المثمرة. لم يصاحب هذا التراجع المتواصل نقصا ملحوظا في عدد وحجم القطعان التي شهدت تطورا مطردا خلال الفترة المدروسة، حيث يقدر العجز في الموارد العلفية بحوالي 58٪. أدى إختلال التوازن بين المساحات المخصصة للمراعي وحجم القطعان إلى تفاقم ظاهرة تدهور المراعي وإندثار الكثير من الفصائل النباتية ذات القيمة العلفية العالية. ولحد من هذا الإختلال إنتهج مربو الماشية بالوسط التونسي إستراتيجية تعتمد بالأساس على التكملة العلفية وهو ما يثقل كاهل المربين خاصة عند تتالي سنوات الجفاف.

تقدم هذه الدراسة تصورا للإستراتيجية التي يمكن إتباعها لحماية المراعي وتحسين عائدات نشاط تربية الماشية بالوسط التونسي. هذه وهي مقارنة مستوحاة من النجاح النسبي الذي حققته ضيعة ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى بصواف، التي رغم إنتمائها إلى الطابق البيومنتاخي نصف الجاف في مستواه الاسفل⁵⁰ إلا أنها نجحت في تطوير مواردها العلفية الذاتية وذلك بإنتهاج إستراتيجية تعتمد بالأساس على تحسين المراعي بإستعمال شجيرات علفية مستقدمة وأخرى محلية. ومكّن هذا التوجه ضيعة صواف من تقليص إتمادها على المكملات العلفية المشتراة. إنّ نجاح ضيعة صواف في تطوير مواردها العلفية الذاتية يجعلها مثالا يقتدي به في تطوير نشاط تربية الماشية بالمناطق المجاورة لها.

⁵⁰ Semi-aride inférieur



Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux

 2, Avenue de France Imm Ibn Khaldoun (National), 2ème étage
Apt325-Tunis Bab Bhar 1000

 Tél.: (+216)71 325 129 - Fax: (+216)71 325 128

 contact@ftdes.net  ftdes.net

**FRIEDRICH
EBERT
STIFTUNG**



**TERRE
SOLIDAIRE**
Soyons les forces du changement